التعليق على

وصية الباجي لولديه

تأليف

أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي

المتوفى سنة ٤٧٤ هـ

لفضيلة الشيخ

خالد بن عبد الله المصلح

الدرس العاشر

www.almosleh.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(وعليكما بطاعةِ مَنْ ولاه اللهُ أمرَكما فيما لا معصيةَ فيه لله تعالى، فإنَّ طاعتَه مِنْ أفضلِ ما تتمسكان به وتعتصمان به ممَّن عاداكما.

وإياكما والتعريضَ للخلاف لهم، والقيامَ عليهم، فإنَّ هذا فيه العَطَبُ العاجل، والخزيُ الآجلُ، ولو ظفرْتُما في خلافِكما، ونفذتُما فيما حاولتما، لكانَ ذلك سببَ هلاكِكما لِمَا تكسبانه مِنَ المآثم، وتُحدِثان على الناس مِنَ الحوادث والعظائم.

ثم مَنْ سعيتُما له، ووثقتُما به لا يُقدِّمُ شيئاً على إهلاكِكما والراحةِ منكما، فإنَّه لا يأمَنُ أنْ تُحدِثا عليه ما أحدثتُما له، وتنهضان بغيْرِه كما نهضتُما به.

فالتزما الطاعةَ وملازمةَ الجماعةِ، فإنَّ السلطانَ الجائرَ الظالِمَ أرفقُ بالناس مِنَ الفتنة وانطلاقِ الأيدي والألسنة.)

بسم الله الرحمـٰـن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

هـٰذا صلة ما كنا قد قرأناه في هـٰذه الوصية، وفيه ما هو واضح وظاهر من طريق أهل السنة والجماعة فيما يتعلق في طاعة ولاة الأمر فيما لا معصية فيه، والشيخ رحمه الله حثّ ولديه على ذلك وحذّرهما من التعرض للخلاف لولاة الأمر لما في ذلك من الفساد القريب والبعيد، وختم هـٰذا بقوله (**فالتزما الطاعةَ وملازمةَ الجماعة**) الطاعة في المعروف، و(**وملازمةَ الجماعة**) أي أهل الاجتماع من أهل الإسلام، (**فإنَّ السلطانَ الجائرَ الظالِمَ أرفقُ بالناس مِنَ الفتنة**) وهذا لاشك فيه، لا ريب فيه أن ظلم الظالم أرفق بالناس من أن لا يكون ولاة تنتظم بهم شؤون العباد والبلاد.

ولذلك قال: (**فإنَّ السلطانَ الجائرَ الظالِمَ أرفقُ بالناس مِنَ الفتنة وانطلاقِ الأيدي والألسنة**) وهـٰذا شاهد، وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أن من المعروف في الحكمة: أن ليلة بلا سلطان أشد على الناس (شرّ) من ستين سنة بسلطان جائر وذلك أنه إن افتقد الناس من يلي أمورهم ويدبر شؤونهم حتى ولو كان على تقصير دخل عليهم من الفساد في دينهم ودنياهم ما لا يوقف على حده إلا بمشاهدته.

ثم قال رحمه الله:

(فإنْ رابَكما أمرٌ مِمَّن وُلِّي عليكما، أو وصلت منه أذيَّةٌ إليكما، فاصبِرا وانقبِضا وتَحيَّلا لصرفِ ذلك عنكما بالاستنْزالِ والاحتمالِ والإجمال، وإلا فاخرُجا عن بلدِه إلى أنْ تصلُحَ لكما جهتُه، وتعودَ إلى الإحسان إليكما نيَّتُه.

وإياكما وكثرةَ التظلُّمِ منه، والتعرُّض لذكره بقبيحٍ يُؤثَرُ عنه، فإنَّ ذلك لا يزيدُه إلا حَنَقاً وبُغضةً فيكما، ورضاً بإضرارِه بكما.

وابدءا بعدَ سَدِّ هذه الأبواب عنكما بتركِ منافسة مَنْ نافسكما، ومطالبة مَنْ طالبكما، فإنه قد يبدأ بهذه المعاني مَنْ يعتقد أنه لا يتوصل منها إلى محظورٍ، ولا يتشبَّث منها بمكروه، ثم يُفضي الأمرُ إلى ما لا يُريده، ولا يعتمدُه مِنْ مُخالفةِ الرئيس الذي يقهرُ مَنْ ناواه، ويغلب مَنْ غالبه وعاداه.)

هـٰذا فيه وصية جيدة لطالب العلم، ولكل مسلم أن لا ينافس منافسة يظن أنها لا توقعه في شر فينقلب الأمر إلىٰ خلاف ذلك؛ بأن تكون سببا لتورطه في الشرور ووقوعه في الآثام.

فينبغي للمؤمن أن ينافس في طاعة الله عز وجل أما الدنيا وفيها، فإنها زائلة لا بقاء فيها والمؤمن يجد في المنافسة في طاعة الله عز وجل والمسابقة إلىٰ الخير من السعة والراحة والطمأنينة ما لا يجده في المنافسة على أمور الدنيا والمناصب والجاه والشرف والعلو فيها؛ بل الله جل وعلا يعاقب الإنسان بنقيض قصده فيما إذا ساهم في أمر الدنيا فيكون طلبه للعلو سفولا كما قال الله جل وعلا: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣)﴾.[١]

فالزم تقوى الله جل وعلا في السر والعلن، فيما تأتي وما تذر، فيما بينك وبين إخوانك، وفيما بينك وبين ربك، وفيما بينك وبين كل أحد، فإنه من يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب، من يتق الله يجعل من أمره يسرا، من يتق الله يوصله جل وعلا إلىٰ الفوز كما قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١)﴾.[٢]

فالواجب على طالب العلم أن لا ينافس إلا في الخير وأن لا يسابق إلا إلى مرضاة الله جل وعلا، هـٰذا هو السباق المشروع هـٰذا هو الذي أمر الله جل وعلا به ﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ

(١) سورة : القصص (٨٣).

(٢) سورة : الزمر (٦١).

عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣)﴾،[١] وقال: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاء وَالْأَرْضِ﴾،[٢] فالواجب على أهل الإيمان أن يسابقوا في هـٰذا، لا فيما يزول ولا يبقى ولا يؤمن ضرره ولا تؤمن عاقبته. ثم يقول رحمه الله:

(وإنْ رأيتما أحداً قد خالف مَنْ وُلِّيَ عليه، أو قام على مَنْ أُسنِدَ أمرُه إليه، فلا ترضَيا فعلَه، وانقبضا منه، وأغلِقَا على أنفسِكما الأبوابَ، واقطعا بينكما وبينَه الأسبابَ، حتى تنجلِيَ الفتنةُ، وتنقضِيَ المحنَةُ.)

وهذا أقل ما يكون لمن طلب لنفسه السلامة، يقول: (وإنْ رأيتما أحداً قد خالف مَنْ وُلِّيَ عليه) بالخروج عليه والمنابذة له، (أو قام على مَنْ أُسنِدَ أمرُه إليه، فلا ترضيا فعلَه) لأن فعله لا يرضاه الله ورسوله، إذ أمر الله جل وعلا بالاجتماع والائتلاف والاعتصام بحبل الله وعدم منابذة من ولاه الله الأمر ما دام محكما للشريعة آمرا بها عاملا بها معظما لها؛ لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أخبر باختلاف الأمر، وقيل له: أفلا ننابذهم؟ قال: ((لا، حتى تروا كفرا بواحا عندكم من فيه الله سلطان))[٣]، ولم يقل: كفرا، قال: ((كفرا بواحا))؛ أي ظاهرا جليا عندكم فيه من الله سلطان؛ أي برهان وحجة واضحة لا لبس فيها ولا اشتباه، ومثل هـٰذا لا يكون في غالب حال ولاة أمور المسلمين.

فينبغي للمؤمن أن يتحرّى في هذا الأمر وأن لا يرضى مثل هـٰذه الأمور التي تكون سببا لوقوع الشر بين أهل الإسلام قال رحمه الله: (وانقبضا منه) أي لا تنبسطا له (وأغلِقَا على أنفسِكما الأبوابَ، واقطعا بينكما وبينَه الأسبابَ)؛ إلا إذا كان في ذلك نصح كما جرى لعبد الله بن عباس رضي الله عنه في نصحه للخوارج حيث ذهب إليهم وتألفهم ونصحهم، فهـٰذا لا بأس به.

أما إن كانت المجالسة لا على نصح فينبغي للمؤمن أن لا يفعل هـٰذا؛ لأن هـٰذا سبب لوقوع الشر في قلبه وانتقال الضرر إليه.

يقول: (وأغلِقَا على أنفسِكما الأبوابَ، واقطعا بينكما وبينَه الأسبابَ) أعاذنا الله من الفتن والمحن.

([١]) سورة : آل عمران (١٣٣).

([٢]) سورة : الحديد (٢١).

([٣]) **البخاري**: كتاب الفتن، باب قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ((سترون بعدي أمورا تنكرونها))، حديث رقم ٧٠٥٦.

مسلم: كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في معصية، حديث رقم ١٧٠٩.

ثم يقول رحمه الله:

(وإياكما والاستكثارَ مِنَ الدنيا وحُطامِها، وعليكما بالتوسطِ فيها، والكفافِ الصالحِ الوافرِ منها، فإنَّ الجمعَ لها والاستكثارَ منها، مع ما فيه مِنَ الشغل بها، والشغبِ بالنظرِ فيها، يصرِفُ وجوهَ الحَسدِ إلى صاحبها، والطمعِ إلى جامعها، والحنقِ على المنفرد بها.

فالسلطانُ يتمنَّى أنْ يَزِلَّ زلَّةً يتسببُ بها إلى أخذِ ما عَظُمَ في نفسِه مِنْ مالِه، والفاسقُ مُرصَدٌ لخيانتِه واغتيالِه، والصالِحُ ذامٌّ له على استكثارِه منه واحتفالِه.

يخافُ عليه صديقه وحميمه، ويُبغِضُه مِنْ أجلِه أخوه شقيقُه، إنْ منعَه لم يعدمْ لائماً، وإنْ بذلَه لم يجدْ راضياً.)

ومن كانت هـٰذه حاله وصفته فالتخلي عنه والتقلل منه هو سبيل أهل العقل والبصيرة، وهذا الذي جعل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا))[1] أي كفافا يحصل به كفايتهم ولا يكثر عليهم فيشتغلون به ويكون سببا لما ذكر من مفاسد. نعم

(ومنْ رُزِقَ منكما مالاً، فلا يجعلْ في الأصولِ إلا أقلَّه؛ فإنَّ شغبَها طويل، وصاحبَها ذليلٌ، وهي ليست بمالٍ على الحقيقة)

المقصود بالأصول الأراضي والدور والأشجار والمزارع، يعني من رزق منكما مالا -ينصح ولديه بأن لا يكثر من شراء العقار سواء كان ذلك دورا أو بياضا من الأراضي أو ما فيه شجر أو زرع، يقول (فلا يجعلْ في الأصولِ إلا أقلَّه) السبب (فإنَّ شغبَها طويل)أي ما يترتب عنها من الانشغال والمشاكسات طويل، (وصاحبَها ذليلٌ) لأنها تغنيه في وقت الحاجة. يقول:

(وهي ليست بمالٍ على الحقيقة، إنْ تغلَّبَ على الجهة عدوٌّ حالَ بينَه وبينها، وإنِ احتاج إلى الانتقال عنها تركها أو ترك أكثرَها.

ومن احتاج منكما، فليجمل في الطلب، فإنه لا يفوته ما قُدِّر له، ولا يدرك ما لم يقدر له)

(فليجمل في الطلب) يعني يطلب طلبا جميلا، فلا يلح ويكثر في الطلب، وقد جاء في حديث أبي حميد الساعدي رضي الله عنه أمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك حيث قال: ((اتقوا الله وأجملوا في

---

[1] **البخاري**: كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه وتخليه من الدنيا. حديث رقم ٦٤٦٠.
مسلم: كتاب الزكاة، باب في الكفاف والقناعة، حديث رقم ١٠٥٥. واللفظ له.

طلب الدنيا فإن كلا ميسر لما خلق له))[1] وهذا يدل على أن الرزق سيبلغك شاء من شاء وأبى من أبى، فإن الله قد حكم بأن من قضي له شيء فلابد أن يبلغه.

فينبغي للمؤمن أن لا يلحف في الطلب وأن لا يشق على نفسه فيه، بل يجمل في الطلب كما أمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث أبي حميد الساعدي الذي رواه البيهقي بسند صحيح، وهو من حديث جابر بن عبد الله في سنن ابن ماجة بحديث فيه ضعف. نعم

(**وقد ذكر الله تعالى ما وعظَ به العبدُ الصالح ابنَه في مثل هذا، فقال: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.**[2])

(﴿**إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ**﴾) أي وزن حبة في السماوات، ﴿**مِّنْ خَرْدَلٍ**﴾ أي من شيء زهيد، لا يوزن فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأتي بها الله، إن الله لطيف خبير، لطيف في إيصاله وبلوغه لما قدّره وقضاه وأجله خبير لا تخفى عليه بواطن الأمور؛ بل هو العليم الخبير جل وعلا. نعم.

(**واجتنبا صُحبةَ السلطان ما استطعتُما، وتحرَّيا البُعدَ منه ما أمكنَكُما، فإنَّ البُعدَ منه أفضلُ من العزِّ بالقُرب منه؛ فإنَّ صاحبَ السلطان خائفٌ لا يأمَنُ، وخائنٌ لا يُؤمَنُ، ومُسيءٌ إنْ أحسن، يَخاف منه ويُخاف بسببه، ويَتَّهمه الناسُ مِنْ أجله. إنْ قُرِّبَ فتَنَ، وإنْ أبعدَ أُحزنَ، يحسُدُك الصديقُ على رضاه إذا رضي، ويتبرَّأ منك ولدُك ووالداك إذا سَخطَ، ويكثُرُ لائموك إذا منع، ويقلُّ شاكروك إذا شبع. فهذه حالُ السلامة معه، ولا سبيلَ إلى السلامة ممَّن يأتي بعدَه.**

فإن امتُحنَ أحدُكما بصحبته، أو دعتْه إلى ذلك ضَرورةٌ، فليتقلَّلْ منَ المالِ والحالِ، ولا يغتَبْ عندَه أحداً، ولا يُطالبْ عنده بَشراً، ولا يعصِ له في المعروف أمراً، ولا يستنْزِلْه إلى معصية الله تعالى، فإنَّه يطلبُه بمثلِها، ويصيرُ عندَه مِنْ أهلِها. وإنْ حَظِيَ عنده بمثلِها في الظاهرِ، فإنَّ نفسَه تَمقتُه في الباطن.)

---

(1) **ابن ماجه:** كتاب التجارات، باب الاقتصاد في طلب المعيشة، حديث رقم ٢١٤٢.
ذكره الشيخ الألباني في **السلسلة الصحيحة** برقم ٨٩٨، وقال: هو على شرط مسلم وحده.
(2) سورة : لقمان (١٦).

طيب هـٰذا المسلك الذي ذكره المؤلف رحمه الله هو مسلك جماعة من سلف الأمة وأئمتها وهو البعد عن السلطان، وسلك آخرون من أئمة السلف مسلكا غير هـٰذا فرأوا مصاحبة السلطان ومعاونته فيما يتمكنان من العدل والمعروف والخير.

ومدار هـٰذا وذاك على المصلحة، فما اقتضته المصلحة فالواجب العمل به، والإنسان في ذلك يجتهد ويتحرى الصواب ويتقي الله عز وجل في الأخذ والترك.

ولا يجوز للمؤمن أن يعيب من اجتهد فرأى الصواب في مخالطة السلطان ونصحه، كما لا يعيب من اختار البعد لسبب من الأسباب على بعده، فكل طريق من هذين الطريقين سلكه السلف. نعم

(ولا يرغب أحدُكما في أنْ يكونَ أرفعَ الناس درجةً، وأتَمَّهم جاهاً، وأعلاهم منْزلةً؛ فإنَّ تلك حالٌ لا يسلَمُ صاحبُها، ودرجةٌ لا يثبُتُ مَنِ احتلَّها.)

نعم، هـٰذه فائدة ينبغي للمؤمن أن يتنبه لها **(ولا يرغب أحدُكما في أنْ يكونَ أرفعَ الناس درجةً)** في أي شيء من أمور الخير أو أمور الدنيا، لا تحرص على أن تكون أرفع الناس درجة، يقول: **(أنْ يكونَ أرفعَ الناس درجةً، وأتَمَّهم جاهاً، وأعلاهم منْزلةً فإنَّ تلك حالٌ لا يسلَمُ صاحبُها، ودرجةٌ لا يثبُتُ مَنِ احتلَّها)** لأن من علا سفل، وكل من طار فلا بد أن يترل وإذا بلغ الذروة فقد آذن بالترول.

يقول رحمه الله:

(وأسلمُ الطبقاتِ الطبقةُ المتوسطة: لا تُهتضَمُ منْ ضَعَة[1]، ولا تُرمَقُ منْ رِفعة. ومنْ عيبِ الدرجة العُليا أنَّ صاحبَها لا يرجو المزيدَ، ولكنه يَخافُ النقصَ، والدرجةُ الوُسطى يرجو الازديادَ، وبينها وبين المخاوفِ حجاب.

فاجعلا بين أيديكما درجةً يشتغلُ بها الحسودُ عنكما، ويرجوها الصديقُ لكما.)

صحيح، واضح هـٰذا يقول: **(وأسلمُ الطبقاتِ الطبقةُ المتوسطة: لا تُهتضَمُ منْ ضَعَة)** يعني لا تحتقر وينتقص صاحبها من نزول لأنه مرتفع، **(ولا تُرمَقُ منْ رِفعة)** أي ولا ترنوا إليها الأبصار وترميها الأبصار لكونها رفيعة، يقول: **(ومنْ عيبِ الدرجة العُليا أنَّ صاحبَها لا يرجو المزيدَ)** هـٰذا من عيب الدرجة العليا؛ أن من بلغها لا يرجوا زيادة فقد توقف به السير؛ ولكنه يخاف النقص، يخاف أن يترل ولذلك تجده يتفانى في حفظ هـٰذه المرتبة، يقول: **(والدرجةُ الوُسطى يرجو الازديادَ، وبينها وبين**

---

(1) في نسخة: دَعَةٍ.، (ضَعَة) يعني من سفول.

المخاوفِ حجاب.) يعني ليس خوفه كخوف غيره، وهذا في أمر الدنيا يا إخواني، وفي أمر الجاه والشرف.

أما في أمر الدين والطاعة فينبغي له أن يسابق وينافس ويجتهد في بلوغ أعلى الدرجات؛ فإنه لا يمكن أن يبلغ درجة يقول: لا أعلى منها. بل درجات الهدى والخير متتابعة، فكلما بلغ درجة رمى إلىٰ التي بعدها ولذلك نحن نقول: ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُستَقِيمَ (٦)﴾.[١]

(**وبينها وبين المخاوفِ حجاب**) لأنه لا يخاف كخوف الذي بلغ المنتهى (**فاجعلا بين أيديكما درجةً يشتغلُ بها الحسودُ**) يعني اجعلا طبقة في خير الدنيا والجاه أعلى منكم يشتغل بهم الحسود عنكم (**ويرجوها الصديقُ لكما**) بلوغها. نعم.

(**ولا يطلب أحدُكما ولايةً؛ فإنَّ طلبَها شَيْنٌ، وتركَها لمن دُعِيَ إليها زيْنٌ، فمنِ امتُحِنَ بها منكما، فلتكُنْ حالُه في نفسه أرفعَ منْ أنْ تُحدثَ فيه بأواً،**[٢] **أو يُبدي بها زَهواً، وليعلمْ أنَّ الولايةَ لا تزيدُه رِفعةً، ولكنَّها فتنةٌ ومحنةٌ، وأنَّه معرَّضٌ لأحدِ أمرين: إمَّا أنْ يُعْزَلَ فيعود إلى حالته، أو يُسيء استدامةَ ولايته، فيقبُحُ ذكرُه، ويثقلُ وزرُه. وإن استوتْ عندَه ولايتُه وعزلُه، كان جديراً أنْ يستديمَ العملَ فيبلغَ الأملَ، أو يُعزلَ لإحسانه، فلا يَحُطُّ ذلك منْ مكانه.**)

رحمه الله جمع في نصحه كلاما جميلا وعقلا سديدا قلّ أن تجد ذلك في وصية من وصايا الناس.

يقول رحمه الله: (**ولا يطلب أحدُكما ولايةً**) كما نهى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك كما في الصحيحين من حديث عبد الرحمـٰن بن سمرة قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**يا عبد الرحمـٰن لا تسأل الولاية الإمارة، فإنك إن أعطيتها عن مسألة أكلت إليها، وإن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها**))،[٣] (**فإنَّ طلبَها شَيْنٌ**) ينزل بالإنسان عن الدرجة الرفيعة والمنزلة الفاضلة (**وتركَها لمن دُعِيَ إليها زيْنٌ**) من تركها وقد دعي إليها حمد على ذلك قال رحمه الله: (**فمنِ امتُحِنَ بها**) إن اقتضت ذلك مصلحة (**فمنِ امتُحِنَ بها منكما، فلتكُنْ حالُه في نفسه أرفعَ منْ أنْ تُحدثَ فيه بأواً**) أي أن تحدث هـٰذه الولاية فيه علوا وفخرا (**أو يُبدي بها زَهواً**) أي يرى في نفسه على الناس علوا

---

(١) سورة : الفاتحة (٠٦).

(٢) كبرا وعلوا وفخرا، هـٰذا معنى البأو.

(٣) **البخاري**: كتاب الإيمان والنذور، باب قول الله تعالىٰ ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ حديث رقم ٦٦٢٢.

مسلم: كتاب الإمارة، باب النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها، حديث رقم ١٦٥٢.

ومنزلة (**وليعلمْ أنَّ الولايةَ لا تزيدُه رِفعةً**) وهذا واقع، لا تزيده عند الله جل وعلا رفعة؛ بل إنها فتنة ومحنة (**ولكنَّها فتنةٌ ومِحنةٌ، وأنَّه معرَّضٌ لأحدِ أمرين: إمَّا أنْ يُعْزَلَ فيعود إلى حالته، أو يُسيء استدامة ولايتِه، فيقبُحُ ذِكرُه، ويثقُلُ وِزرُه. وإنِ استوتْ عندَه ولايتُه وعزلُه، كان جديراً أنْ يستديم العملَ**) هـٰذه مهمة يعني إذا كان الإنسان يعمل ويستوي عنده أن يبقى في هـٰذا المكان أو يزول عنه فإنه (**يستديم العملَ فيبلغَ الأملَ**) بخلاف ذاك الذي يخشى أن يُزاح فتجده يصارع للبقاء، أو ذاك الذي يتشوف للبقاء في هـٰذا المكان فإنه يسلك كل سبيل لإبقائه، أو ذاك الذي يخاف أن يزاح فتجده يستكثر من ظلم الناس وأخذ حقوقهم حتى يفوز بأكبر نصيب من أخذ ما يمكن أخذه قبل أن يزاح.

أما ذاك الذي استوى عنده الأمر بين البقاء والزوال بين الاستدامة والنزول فإنه (**يستديم العملَ فيبلغ الأملَ، أو يُعزلَ لإحسانِه، فلا يَحُطُّ ذلك مِنْ مكانِه**) بل يحمده الناس ويذكرونه بخير.

قال رحمه الله:

(**وأقِلا مُمازحةَ الإخوانِ وملابَستهم، والمتابعةَ في الاسترسالِ معهم؛ فإنَّ الأعداءَ أكثَرُ ممَّنْ هذه صفتُه، وقَلَّ مَنْ يُعاديك ممَّنْ لا يَعرِفُك ولا تعرِفُه.**)

يقول رحمه الله في وصيته: (**وأقِلا مُمازحةَ الإخوانِ وملابَستَهم**) أي مخالطتهم، (**والمتابعةَ في الاسترسالِ معهم**) أي إياكم والاسترسال معهم في اختلاط أو كثرة مزاح، (**فإنَّ الأعداءَ أكثَرُ ممَّنْ هذه صفتُه**)، الأعداء أكثر ما يكونون من الإخوان الذين تكون بينكم وبينهم صلة في أول الأمر، (**وقَلَّ مَنْ يُعاديك ممَّنْ لا يَعرِفُك ولا تعرِفُه**) والعداوات إنما تنشأ من المعارف والمخالطين.

فلذلك ينبغي للمؤمن أن يكون على حذر وأن يتوخى الخير لإخوانه وأن يتقي الله في قوله، فإن الله عز وجل أمر بقول الأحسن فقال: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾[1] فالشيطان حريص على تفريق الصف وإيجاد الضغائن وإحياء العداوات بين المؤمنين، فإذا حرص المؤمن على حسن المنطق وجمال اللفظ وحسن السريرة ومحبة الخير لإخوانه وأقل من أسباب الفرقة والخلاف كان ذلك أدعى لإدامة الود وقيام المحبة بينه وبين إخوانه.

---

(1) سورة : الإسراء (٥٣).

قال رحمه الله:

(فهذا الذي يَجبُ أنْ تَمتثلاه وتلتزماه، ولا تترُكاه لعرَضٍ ولا لوجهِ طمَعٍ، فربَّما عرض وجهُ أمرٍ يروق، فيستَزِلُّ عنِ الحقائق بغيرِ تحقيقٍ، وآخرهُ يُظهر مِنْ سوءِ العاقبة ما يُوجب الندمَ حيثُ لا ينفعُ، ويتمنَّى له التلافي فلا يمكن.

فإنْ فقدتُما وصيتي هذه، ونسيتُما معناها، فعليكما بما ذكر الله تعالى في وصيَّة لقمانَ لابنه، فإنَّ فيها جماعَ الخيْر، وهي: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩)﴾.[١]

وإنِّي لأُوصيكما، وأعلمُ أنِّي لن أُغنيَ عنكما مِنَ الله شيئاً. إنِ الحكمُ إلا لله، عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلونَ، وهو حسبنا ونعم الوكيل.)

اللهم اغفر له وارحمه، اللهم اغفر له وارحمه، هـٰذه وصية جامعة ما ينبغي لطالب العلم أن يعيد النظر فيها بين فترة وأخرى ليحصل له من النظر والبصيرة والتأمل في كلام العلماء؛ لأن هـٰذه زبدة علمه، زبدة نظره وتجربته، إذا أوصاك عالم ليس كما إن أوصاك جاهل، الإنسان يفرح بوصية الحكيم، فكيف بوصية عالم بصير بكلام الله وكلام رسوله، ومعه من الحكمة والنظر والتجربة ما يوجب إصابة الصواب وبلوغ الغاية في النصح والوصية.

رحمه الله ختم هـٰذه الوصية بقوله: (**فإنْ فقدتُما وصيتي هذه**) يعني ذهبت منكم أو سرقت أو تلفت واحترقت (**ونسيتُما معناها، فعليكما بما ذكر الله تعالى في وصيَّة لقمانَ لابنه، فإنَّ فيها جماعَ الخيْر**) فيما ما يجمع الخير بأطرافه وهي: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩)﴾ ووصية لقمان لابنه وصية جامعة، بدأها بما لو ذكره المؤلف لكان خيرا وذلك

[١] سورة : لقمان (١٧-١٩).

أو قال أولا: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾[1] فابتدأ وصيته بالنهي عن الشرك، ثم ذكر في ثنايا وصيته من التذكير باليوم الآخر ما ذكر المؤلف شيئا فيما تقدم، ثم عاد إلىٰ ذكر ما تستقيم به عبادته وتستقيم به معاشرته للخلق فجمعت إقامة الصلة بالله عز وجل وإقامة الصلة بالخلق.

نسأل الله العلم النافع والعمل الصالح.

ثم قال: (**وإنّي لأُوصيكما، وأعلمُ أنّي لن أُغنِيَ عنكما مِنَ الله شيئاً**) يعني لا أملك لكما من الله شيئا، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن؛ لكن هـٰذا هو الجد، وهذا هو السبيل في تحصيل المقصود.

فإن حصل ذاك وإلا فالأمر لله من قبل ومن بعد.

(**إنِ الحكمُ إلا لله**) يعني لا يحكم إلا الله جل وعلا فقوله (**إن**) هنا نافية ما الحكم إلا لله، ما الحكم الشرعي ما الحكم القدري إلا لله عز وجل (**عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلونَ، وهو حسبنا**) أي هو كافينا جل وعلا، (**ونعم الوكيل**) أي ونعم ما أوكله عليكما في بلوغ ما أؤمل وفي الأمر مما أخاف وأخشى عليكما.

وبهذا تكون قد انتهت هـٰذه الوصية المباركة.

نسأل الله عز وجل أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

---

[1] سورة : لقمان (١٣).